تحولات الرمز في شعر عبد العزيز المقالح

م. د.رضاب حافظ حميد الطائي
التعليم المهني الثاني / الرصافة – إعدادية الرصافة الثانية

المستخلص

يتناول البحث تحولات الرمز في شعر الشاعر اليمني الكبير عبد العزيز المقالح ، وقد أخذ الرمز الشعري مستويات متعددة في تجربة المقالح الشعرية فهو مرّةً رمزاً عابراً ، ومرّةً يصل إلى درجة التوحد والتبني مع الشاعر ويصبح قناعاً ، ويكتمل في نصوص شعرية إلى أن يكون قناعاً درامياً يُشكل نسغ القصيدة وتجربتها . لذلك يكون هذا البحث من ثلاثة مباحث هي :

المبحث الأول : الرمز الشعري .

المبحث الثاني : الرمز القناع .

المبحث الثالث : القناع الدرامي .

وقد اعتمد البحث على دواوين الشاعر الأولى المجموعة في ديوانه الصادر عن دار بيروت – لبنان ، والذي يمثل بداية تجربته عبر ثلاثة عقود من الزمن ، الأمر الذي جعلنا ان نتابع مستويات التطور والنضوج لديه في استعمال الرمز الشعري .

المقدمة:

يُعد الرمز الشعري واحداً من أبرز الظواهر في النتاج الإبداعي للشعراء الرواد ، حتى عُدتْ ثنائية الرمز والأسطورة، أوضح ملامح الشعر العربي الحديث حضوراً ، للعلاقة الوثيقة والدور التبادلي المترادف في التعبير والإيحاء بينهما، حداً كاد يدل كل منهما على الآخر ويبادله موقعه في التأثير. ويمكن القول : إن الرمز صار يشكل النسغ الرئيس الذي يغذي بنية القصيدة

الحديثة ويمثل أبرز سماتها الفنية وعنوانها في التجديد والتجويد والإبداع . وقد أصبح الرمز أحد أهم الوسائل الفنية التي يتحراها الشاعر الحديث في القصيدة لتلائم وتواكب مظاهر ومستجدات العصر الفكرية والاجتماعية. وفي هذه الحالة تماهي ((العلوم الطبيعية تضع بين يدي علماء الرياضة مسائل جديدة تدفعهم إلى وضع رموز جديدة ، فكذا المطالب المتجددة دائما في المجتمع وفيما وراء الطبيعة تدفع الفنان إلى البحث عن لغة جديدة وعن مسائل فنية جديدة))[1]، لذلك عبّر الشاعر من خلال الرمز الشعري عن حالاته النفسية المتأزمة التي عكست أزمة المجتمع في تناقضاته وانكساراته المستمرة ، وعبّر أيضا من خلال الرمز عن احتجاجه ورفضه للواقع المهان ، فأصبح الرمز أحد الوسائل المهمة التي عبر بها الشاعر عن قضيته وقضية عصره وجيله . وقد أخذ الرمز الشعري مستويات متعددة في تجربة المقالح الشعرية؛ فهو مرّةً رمز عابر، ومرّةً يصل إلى درجة التوحد والتبني مع الشاعر ويصبح قناعاً ، ويكتمل في نصوص شعرية إلى أن يكون قناعاً درامياً يُشكل نسغ القصيدة وتجربتها . لذلك يكون هذا البحث من ثلاثة مباحث هي :

المبحث الأول : الرمز الشعري .

المبحث الثاني : الرمز القناع .

المبحث الثالث : القناع الدرامي .

وقد اعتمد البحث على دواوين الشاعر الأولى المجموعة في ديوانه الصادر عن دار بيروت – لبنان ، والذي يمثل بداية تجربته عبر ثلاثة عقود من الزمن ، الأمر الذي جعلنا نتابع مستويات التطور والنضوج لديه في استعمال الرمز الشعري .

المبحث الأول : الرمز الشعري

يمكن أن نعدّ شعر الشاعر اليمني الكبير عبد العزيز المقالح أحد أهم شعراء القصيدة الحديثة لجيل ما بعد الرواد ، إنموذجاً واضحاً لاستعمال الرمز

عنصراً فنياً أبرز في طوال مسيرته الشعرية الثرّة، إذ حققت قصيدته الشعرية نضوجاً فنياً كبيراً في استعمال الرمز على مختلف أشكاله ودلالاته المتنوعة التأريخية والدينية والأسطورية .. ولا يمكن للباحث أو الكاتب أن يعطي تصوراً كاملاً عن قصيدة المقالح في هذا الجانب من خلال مقالةٍ أو بحثٍ ، بل يحتاج إلى مشوار طويل كي يحقق بشكل دقيق ذلك الاستعمال الرمزي المتنوع في قصيدة هذا الشاعر، الذي يمثل أحد الصفوة المبدعة من الشعراء المعاصرين الكبار في الساحة العربية.

والمقالح يكثر من الرمز الشعري لأنه امتداد لتجربته ومعاناته ، ولأنه يمتلك ثقافة واسعة في هذا المضمار، حتى تزدحم بعض قصائده بكثير من الرموز الأسطورية والتاريخية كما في قصيدة الاسكندرية، وقصيدة الشمس تسقط في المغرب. وهذا يدل أن ثمّة تشابهاً قوياً يشدّه مع دلالة الرمز في عمق التاريخ ، وأن هناك ارتباطاً بين تجربة الحاضر وتجربة الماضي ، وكأن نسخاً من الحياة يمتد بينهما ، أي بين الشاعر المعاصر والرمز التاريخي ، وبذلك يجد الشاعر وسيطاً حيوياً صادقاً يربطه مع التاريخ وينقله بشكل أعمق مع القارئ والمتلقي لتنقل من ثم تجربة القصيدة إلى القارئ العربي بتأثير أكبر ومشاركة أوسع مخففاً في هذا الاستعمال التلاقي المباشر مع المتلقي .

مكانك[2]

قف صامداً يا (سميح)
ولو حمّلوك الصليب
ولو طلبوا منك .. تمشي على الشوك
أن تصعد الجلجة
وفيك أعادوا عذاب المسيح
وكل مخازيهم المخجلة
فانك أقوى
وإنك أبقى

للرمز الشعري استعمال متباين عند الشعراء ، وهو أيضاً استعمال متعدد ومتنوع عند الشاعر الواحد ، فلربما يظهر هذا الرمز في القصيدة الواحدة بشكل عابر لا يضيء إلاّ موقفاً جزئياً من تجربتها ، وكما هي الحال في المقطع الشعري السابق من قصيدة (مكانك قف) ، ونجد مثل ذلك كثيراً في قصائد المقالح ، وكما في قصيدة (الفدائي .. الحلم .. والإنسان) يتشكل مقطع رمزي يضيف دلالة التجدد والاستمرار بمعنى عدم القهر والفناء صفة للإنسان الصامد الثوري في هذا العصر ، ويشكلّ المقالح هذه الدلالة من خلال رمز الطائر العنقاء أو طائر الفينيق الذي يولد من رماده كلما يحترق ويعود من جديد.

إنك لا تموت[2]

كطائر الفينيق لا تموت

تُحرقُ في الفضاء ، عند النهر ، في البحار

ثم تغادر الرماد

وأكثر ما يقصد باستعمال الرمز العابر علاقة التشبيه بين شيئين بشكلهما العام دون التفاصيل ، التشابه بالحادثة أو التشابه بالمكان أو الصفة أو التاريخ ... ولا يتجاوز الحدود عن ذلك في أغلب الأحوال حدود المشبه والمشبه به ، وكما هو الحال في تشبيهه الشاعر الزبيري بالشاعر الإسباني لوركا في قصيدة (الشاعر الشهيد) .

((لوركا)) هناك جثة بلا قبر[2]

تمزقُ الحرابُ جسمه الصغير

وأنت يا أخا ((لوركا))

هنا .. تقضى بنفس الخنجر الحقير

نفس الوجوه لو نظرت

نفس الكف والأجير

وعندما نقلّب ديوان المقالح نجد استعمالاً واسعاً للرمز في قصائده ، الأمر الذي يجعلنا نشعر بذلك الولع من المقالح مع رموزه الشعرية التي يندر فيها غياب أي رمز تاريخي أو أسطوري أو ديني عن قصائده ، إذ نرى الرموز الأسطورية مثل العنقاء وسيزيف بجماليون والسندباد وتموز وعوليس وفينوس وميدوزا ... وكذلك الرموز الدينية مثل الأنبياء هابيل ويهوذا ، والرموز التاريخية مثل سيف بن ذي يزن ووضاح اليمن وأبي نوّاس وغيرها من الرموز التاريخية الحديثة التي أثّرت في التاريخ المعاصر .. ، وهذا يدل على حساسية التبني التي يشعر بها المقالح في تجربته الشعرية مع واقعه المؤلم، حتى تتجاوز هذه الحساسية المرهفة بخروج قصيدته حدود التجربة الشخصية أو القطرية اليمنية إلى رحاب أوسع لتصل وتعانق القضايا العربية والإنسانية معا ، وهذه سمة منحت المقالح حباً جماهيرياً واسعاً جعلته من شعراء الجماهير العربية الذين نجحوا في التعبير عن هموم الشعب العربي من المحيط إلى الخليج بأساليب فنية عمقت تجربة الشعوب لدى الأجيال والنخبة من القارئ ، وتلك صفة لا يستطيع الوصول إليها إلاّ الشعراء الكبار في الأمة .

فلماذا يا أبانا[2]

لا ترانا

كيف نمضي غرباء

سئم الليل أسانا

وبكانا

ملّت الغربة مثوانا .. وضاقت بخطانا

كلما همّ شريد أن يعود

رفعوا في قفر عينيه الجدار

أطلقوا وحش الحدود

صادروا كل طريق للديار

المبحث الثاني : الرمز القناع

وفي قصائد أخرى نجد الرمز الشعري يشكل ثقلاً وحضوراً أوسع في تجربة القصيدة ، ويتحقق شيء من التلاقي بين الشاعر والرمز ونحس بالنضوج الفني في هذا النوع من الوعي للرمز ، وذلك ما نراه بشكل جلي في قصيدة المقالح (أيوب المعاصر) التي استمد منها الشاعر دلالة الصبر والمعجزة عند النبي أيوب عليه السلام إثناء مرضه ورسالته النبوية ، فوجد المقالح امتدادا لهذا الصبر الكبير في تجربته المعاصرة ، وكأن الصبر هو الخط الفاصل بين النبي أيوب عليه السلام والمجتمع من حوله آنذاك في مرضه ، وهو أيضا أي (الصبر) الخط الفاصل بين الشاعر المعاصر وبين الجماهير التي يتحدث إليها ويطلب منها التغيير ، لذلك أصبح الرمز والشعر امتداداً وصوتاً واحداً في القصيدة ، وكلما ازدادت قوة التلاقي بين الشاعر والرمز كلما أثر ذلك بشكل إيجابي على بنية القصيدة ، لأن التشابه والتوحد سيصل إلى درجات عالية بينهما يزيح إلى حد ما تلك الفوارق والاختلافات الموجودة بينهما إثر تغّير الزمن والبيئة عبر القرون البعيدة وبذلك يتحقق التوحد بشكل قوي بين الشاعر والرمز .

أيـــــوب[2] ...

على طريقكم مصلوب

أمال رأسه

ألقى به على صدر مهشم منخوبْ

تجفلُ القلوب

في هذا المقطع يظهر الرمز أيوب بشكل قوي وواضح مع معالم رسم البيئة والاستبطان الذاتي الحزين البائس ، وتلك صور الرمز الحقيقية في التاريخ .

هذه البداية تثير تفاعلاً بين المتلقي والتاريخ ، وهو تفاعل إيجابي لأن القصيدة أو الشاعر تلبس رمزاً مضيئاً من رموز التاريخ ، وهذا يعني أنّ

الشاعر فرض جواً تراثياً دينياً في نفس المتلقي، كي يستقبل ما سيجري من أحداث القصيدة بمشاركة واعيةٍ ، وتلك بداية مهمة في نجاح المقالح وتأثيره في الآخرين . ولربّما نتذكر هنا في تقريب ما فعله المقالح بمقدمة قصيدته ، ما قال عنه ابن قتيبة في تعليله لحضور المقدمة الطويلة في القصيدة الجاهلية ، والتي نستشف منها وعي الشاعر في بناء قصيدته ، إذ يقول ابن قتيبة : ((سمعت بعض أهل الأدب يذكر أنّ مقصدّ القصيد إنما ابتدأ بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها ... ليُميل نحوه القلوب ويصرف إليه الوجوه وليستدعي به إصغاء الأسماع إليه لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب ... فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقب بإيجاب الحقوق فرحل في شعره ...)) [2] .

بقدر ما يحرص المقالح أن يعطّر قصيدته بعبق التاريخ بقدر ما يحاول أن يعطي حضوراً أعمق وفهماً أدق لتجربته المعاصرة ، ويؤثّر في الجماهير من خلال هذا التلاقي بين الهاجس المتشابه المتكرر بين الشاعر المعاصر والرمز التاريخي ، وكأنّ المقالح سحب التاريخ برمزه الديني إلى لحظة الحاضر ، وأن القصيدة احتضنت في هذا الرمز عاملاً مشتركاً يهمّ الشاعر والقارئ في آن واحد ، فتغدو تجربة القصيدة متصلة بين القارئ من جهة ومستمرة مع الشعر من جهة أخرى ، لذلك سيدخل القارئ عنصراً مشتركاً وفاعلاً بفهمهِ وثقافتهِ ورؤيته لتجربة الرمز والقصيدة ، وتبدأ له استقلاليته في التوليد والفهم والتأثر لدلالات الرمز ، وهذا التفاعل سيخفف بشكل كبير من التلاقي والغنائية التي حفلت بها القصيدة العربية ، ما يجعل الشاعر بمعزل عن الالتقاء المباشر مع قارئه ، بل يؤثّر فيه من خلال رموزه ، وهذا سيمنح القصيدة تدفقاً دلالياً واسعاً في الرؤيا لتجربتها عند القراء بفعل الرموز التاريخية والأسطورية والدينية .. التي عكست هذا الانفتاح الدلالي عند

الشعوب بفعل الزمن القديم والعقائد والتراث والتقاليد المختلفة التي كست هذه الرموز الجلال والهيبة ، والألوان المختلفة التي كثرت وتعددت مع الأذواق المختلفة الكثيرة بين شرائح وطبقات المجتمع الواحد لهذه الرموز ، وهذه الخاصية منحت القصيدة الحديثة التجدد والاستمرار والعطاء .

حاول أن يسكب دمعةً أمامكم(2)

كي تمنحوه بعض العطف والرثاء

تحسس الجفون

فتش أغوار العيون

في هذا المقطع يبدأ الرمز يتحرر من تفاصيل القصة التاريخية ، ويقترب أكثر إلى الرمز المعاصر ، وأعني هنا الشاعر المقالح ، الذي حاول أن يسحب ويخفف مقاطع القصيدة من سيطرة الهالة الدينية بشكل هادئ، وينسج معها أيضا في الوقت ذاته وبشكل حريص معالم التجربة المعاصرة ، لذلك تبدأ دلالات جديدة لبعض المعاني والأحداث في القصيدة هي ليست من ملامح الرمز ، ولكنها أيضا ليست بعيدة عنه ، وذلك بفعل قوة التلاقي واقتراب الأحداث في دلالاتها بين الحاضر والماضي ، بين الشاعر والرمز .

محاولاتهُ تحطمت(2)

تبددت هباء

لا دمعة أجدت

ولم تعصر من الجفون ماء

منذ قطعتم ثدي أمه في زمن الرضاء

دموعه مضاعة

سالت على المهد مع الحليب

اختلطت مع الدماء

تناثرت في ليله الرهيب

بقدر ما نشعر بالدراما المأساوية لهذا المقطع ، بقدر ما تقترب هذه الأحزان في طعمها ومرارتها إلى نكهة الرمز الديني ، وهي مأساة عاشها النبي أيوب عليه السلام ، بقدر كل ذلك أيضاً نشعر بان هذه الدراما هي صور الواقع القريب من الشاعر ومحنته ، لأن تفاصيل الأحداث بدأت تتحدث عن البيئة المعاصرة ، وأيضاً بدأت دلالات الرمز تتحول إلى معانٍ جديدة هي أقرب إلى الشاعر منها لغيره ، فأيوب هنا لم يعد ذلك الفرد النبي الناصِح والمرشد لشعبه، بل صار أيوب الشعب اليمني كله أو الشعب العربي ، ذلك الشعب الذي أصبح نبياً بسبب حجم معاناة الصبر على ظلم الحاكم والدولة ، وتحول الحاكم الجلاد الفرد الظالم إلى هالة الشعب وعظمة الأسطورة..

وأيوب الرمز الصابر القوي في إيمانه وإرادته صار غيره في القصيدة وتحول إلى الخائف المنكسر الذي فقد صبره ويأس من عمق الإيمان ، لذلك تغيرت الدلالات في القصيدة بين مفهوم الرمز في تاريخه، وملامح الشاعر المعاصر. وذلك هو الفعل الحقيقي للحدث المؤثر في المتلقي عندما تبدأ بوادر المقارنة والإحساس عنده بين ربط التاريخ مع الواقع المعاصر ما يفعل الإحساس عنده بعمق المأساة والألم . وذلك ما أراد المقالح أن ينقل ما يشعر به إلى القارئ . ويزداد هذا التقارب عندما تبدأ دلالات الرمز القوية بالقلق والفشل في تغيير أزمة الواقع العقيم ، فالصبر لم يعد قادراً على استيعاب المرارة ، أو درعاً يحتمي خلفه الرمز المعاصر أمام قسوة الأحداث . كل شيء تمزق وغدا الرمز عارياً من كل وسائل الإيمان والفكر والعقيدة ، كل الوسائل فشلت في عملية التغيير ، وباتت المعجزة التاريخية مفعمة بالفشل الذريع عند الرمز المعاصر (الشاعر) .

ما عاد صابراً[2]

وليس في وقوفه شجاعة

فالصبر بئرنا الغريب

" أيقونة " الجبان .. والصليب

ثار ، بكى

مشى على طريق النائحين والجواه

مزّق ثوب الصبر قال : آه

من هنا نفهم أنّ الصوت هو صوت المقالح ، فمعالم الرمز ابتعدت عن حقائق التاريخ المعروفة ، وأصبح رمز القصيدة هو أقرب إلى المقالح منه إلى النبي أيوب ، وأنّ مشاهد الصور هي أقرب إلى تجربة المقالح منها إلى تجربة التاريخ . وبرغم ذلك أصبحنا نرى ونتحسس تجربة القصيدة من خلال التاريخ وعبق التراث بعد أن امتزجت معها دلالات عظيمة من مواقف كبرى في تاريخ الإنساني، وأصبحت لحظة القصيدة تكتنز التاريخ والحاضر معا .

حاول أن يمتدح الخناجر°[2]

أن يستعير صوتا مطربٍ وشاعر

أن يمنح الجلاد بعض الحمد والمديح

لكن لسانه المقطوع

صوته الذبيح

خاناه في محنته الكبيرة

في الليلة الضريرة

وهكذا تنتهي القصيدة بصوت المقالح وهمومه ، بعد أن بدأت بصور النبي أيوب عليه السلام رمز القصيدة الذي غادرها في مقاطعها الأولى، ليترك للمقالح حرية التعبير بصوته وغنائيته التي خرقت حاجز التوحد. ويظهر المقالح مباشرة أمام المتلقي؛ لأن صورة الرمز التي انتهت بها قصيدٍته، فقدت معالم الرمز الذي بدأت بها. فالرمز في هذا المقطع مهزوم ، يعاني الفشل ، ولا يملك صبراً يخفف عنه الآلام ، وذلك ما يقربنا من شخص المقالح أكثر مما يذكرنا بالنبي أيوب عليه السلام.

أعاد رأسه على الصدر المهشم الجريح[2]

رمى بعينيه إلى التراب

ودّع في مرارةٍ عالمه القبيح

أطلق روحهُ ، أنقذها من دنس الكلاب

عاش بلا صبر

ومات في العذاب

المبحث الثالث : القناع الدرامي

ويرتقي الرمز الشعري عند المقالح إلى مستويات أعلى في تجربة القصيدة، ويزداد التوحد والتبني بينهما ، ويصبح الرمز الهاجس الأول في القصيدة ، إذ يتحقق نوع من التوحد والتطابق بين الشاعر والرمز حدّا تنطبق عليه مقولة الشاعر العراقي عبد الوهاب البياتي : ((لن أكون أنا حتى تكون أنت أنا))[4]. وحينئذ نطلق على الرمز الشعري تسمية القناع (Masque) ، والقناع تعبير بسيط يعبر عن شكل من أشكال التنكر ، وهو ذلك الشيء الذي يُرتدى غالباً على الوجه أو أمام الوجه مباشرة لإخفاء هوية الشخص الذي يرتديه ليخلق شخصية أخرى[5] . أو هو أداة التلبس، ولابس القناع ممثل يتلبس الشخصية التي يؤدي دورها على المسرح، ويكتسب الممثل مرتدي القناع شيئاً من صفات القناع المعنوية أو الروحية ويصبح ((الممثّلُ هو المُمَثَّلُ نفسه))[6].

هذه الخاصية التي إتخذها الإنسان قديماً جزء من عملية التنكر أو التمويه أو العبادة أو غيرها .. وظفها الشاعر المعاصر في قصائده إلى ما يخلق ((شخصية يستطيع من خلالها أن يقول كل شيء دون أن يعتمد شخصه أو صوته الذاتي بشكل مباشر))[7] ، وهذا يعني أنّ القناع في القصيدة وسيلة يستعملها الشاعر كي يبتعد عن نبرته الذاتية المباشرة ، أو كما يقول د.جابر عصفور : (هو رمز يتخذه الشاعر يفضي على صوته نبرة موضوعية شبه محايدة ، تنأى به عن التدفق المباشر للذات)[8] .

من كل هذا التنظير والمفهوم سعى الشاعر المقالح إلى أن يحقق في قصائده البطل الأنموذجي المتجدد في كل العصور، وكما نرى في قصيدته (نوح بعد الطوفان) ؛ فالرمز هنا هو الشاعر ، والشاعر هو الرمز كلاهما يمدّ السبل إلى الآخر ، واستطاع المقالح أن يحقق في هذهِ القصيدةٍ نضوجاً فنياً في بنية الرمز ، وأن يمزج بين تجربته المعاصرة وتجربة التاريخ ، ويجد موقفاً مشتركاً بينه وبين التاريخ المتمثل بالنبي نوح عليه السلام ، ويأخذ المقالح من قضية الرمز قبسا ينير به تجربته المعاصرة، ويحاول أن يستمد من رمزه الديني ما يناسب الموقف المعاصر، ويخرج تجربته الشعرية مزيجا ناجحا من عبرة التاريخ وواقعية الحاضر ، ويحقق امتدادا بين ما أنقضى وبين ما يحدث ليعلن في قصيدته إلى ما سيكون .

قلت لكم من قبل أن يثور ماء البحر[3]

قبل أن تعربد الأمواجْ

وقبل أن يغيب وجه الأرض

قلت .. الداء والعلاج

لم تحفلوا ..

لم تسمعوا ..

في هذا المقطع الشعري نسمع صوتاً ، هو صوت الرمزٍ (النبي نوح) قناع القصيدة ، وكأن هذا الصوت المتكرر من خلال لفظة (قلت) يختزن شيئاً كبيراً من العتب واللوم ، وكأن المشهد لا نسمع فيه ولا نرى غير القناع وصوته، أي إن المقالح أصبح يقول كل شيء من دون أن يعتمد شخصه أو صوته الذاتي بشكل مباشر.

في هذا المشهد كل المعالم أخذت فعل الإنصات والهدوء ليبرز من سكون هذا المشهد دوي اللوم والتقريع ، والشاعر وهو بداية القصيدة يفعل مثل كاتب القصة أو الرواية حينما يبدأ رسم فعله الدرامي من لحظة نهاية الحدث ليصف

من خلالها مجريات الأحداث السابقة[9] ؛ فالمقالح هنا بدأ من حيث انتهت الأمور في تجربة القناع ، هذا الصوت .. هذا المشهد .. يخرج بعد نهاية الطوفان والإعصار و... وذلك استعمال واعٍ نجح به الشاعر لأننا لا نستطيع أن نسمع صوت المقالح ، بل يسيطر صوت الرمز بمعالمه وبيئته وحدثه ، ويختفي الشاعر خلف قناعه بشكل كامل ، فالقناع هنا أي الرمز الديني (نوح) سيبطئ من التدفق الآلي لانفعالات الشاعر ، ويبطئ من التقاء القارئ بصوت الشاعر ، لأن الصوت والتدفق سيصلان إلى القارئ من خلال وسيطٍ أسمه (القناع) ، وهذا الوسيط سيمنح الشاعر والقارئ معا فسحة من التأمل والخيال يبعد كلا منهما عن الآخر في اللقاء المباشر ، وعندئذ تحقق أسلوبية القناع، أهم محورين في القصيدة الحديثة وتجربتهما المعاصرة ، يتمثل في صوتها الجديد الذي أصبح لا يحمل آثار التشويهات والصرخات والأمراض النفسية التي يحفل بها الشعر الذاتي الغنائي ، ويتمثل أيضاً في موضوعية تجربتها التي ربطت بين موقف الشخصية التاريخية (القناع) وبين موقف الشاعر المعاصر ، وأفكاره مراعياً السمة المتجددة في شخصية القناع[4] .

ولا ندري لماذا تزاحم الشعراء المعاصرون على القناع في قصائدهم ؟! ، ولعل الإجابة عن ذلك تكمن بشكل كبير في ما يكتنزه هذا الرمز من مواقف حيوية وإنسانية متجددة في حياة البشر عبر العصور الطويلة ، والتي تجد حضورها باستمرار في الحياة ، فهي لا تخلو من الفداء أو التضحية والعطاء، أو ما تحمله من تضاد بين الحق والباطل وبين الظلم والإنصاف ، وبين الحياة والموت ... كل هذه الدلالات المتعددة وكل ما تحتويه تجربة الإنسان المعاصر من تنويع وتشكيل حقق هذا التلاقي والتوحد بين الشاعر والرمز .

ويستمر المقالح في استعرض المشهد من خلال صوت القناع (أيوب) ، ولكن هذه المرّة يعطي للسرد الخارجي مساحة أكبر ، إذ تبدأ الحركة في تشكيل الصورة والبيئة وتحمل شيئاً من التضاد بين المفردات (الغيوم والتراب ،

الرؤوس والوحل ، الليل والنهار ، الصوت والرياح ...) ومن ثم يتحقق نوع من الهوّة بين الاستبطان الذاتي للقناع في بداية المشهد وبين المعالم الخارجية للناس من حوله ، هناك نوع من النفور بين القناع والآخرين ، شيء من عدم التلاقي يؤدي إلى العزلة والفشل .

كنتم هناك في الغيوم في الأبراج[3]
أرجلكم ممدودة – كانت – إلى السحاب
رؤوسكم مغروزة في الوحل .. في التراب
قرّبت مشفقا سفينتي
أنفقت عمري أجمع الأعواد والأخشاب
قطعت وجه الليل والنهار
أقرأُ في (الكتاب)
أشدُّ مسماراً إلى مسمار
لكن صوتي ضاع في الرياح
سفينتي تاهت بها الأمواج
فأبحرت خالية إلاّ من الأحزان والملاّح

هنا في نهاية المقطع تصل الأحداث إلى ذروة السرد الخارجي والاستبطان الذاتي للقناع ، ويحدث اللقاء بين تجربة الشاعر وبين تجربة القناع، ويمتزج الصوتان في آن واحد ونسمعهما في وقت واحد ، ففي المقاطع السابقة كانت البيئة والحدث ينتميان بشكل كبير إلى الرمز الديني للقصيدة أكثر مما ينتميان للشاعر ، ولكن في السطر الشعري الأخير من المقطع السابق :

فأبحرت خالية إلاّ من الأحزان والملاّح

بعد هذا المقطع تصبح التجربة المعاصرة تمتزج وتفرض حضورها في القصيدة بشكل انسيابي هادئ من دون أن تؤثر أو تشوّه من حضور القناع ، أو تسرع في إظهار الصرخة الذاتية للشاعر ، فهي نكهة جديدة نتحسسها أو

نسمعها في صوت القناع تقترب شيئاً فشيئاً من صوت المقالح الشاعر المعاصر، أو لنقل أنّ المقطع الأخير فجر في المتلقي الإحساس بمشكلة مهمة عانى منها كل من القناع والشاعر في آن واحد ، وذلك ما نقصد به الانكسار واليأس والانقطاع عند كل من القناع والناس في التاريخ ، وبين الشاعر المعاصر والناس في الوقت الحاضر ، أي الإحساس بالغربة والظلم في المجتمع، وهذا ما نقصد به أوجه اللقاء والتوحد بين الشاعر والقناع ، وكلما إزداد هذا اللقاء والتطابق إنعكس إيجابياً على نجاح القصيدة وبنيتها .

وقبل أن ننتقل إلى مقطع آخر ، نعود بالحديث عن السطر الشعري :

فأبحرت خالية إلاّ من الأحزان والملاّح

في هذه الصورة تتشكل نقطة البدء في التغيير لأحداث القصيدة ، ويحدث التضاد بين تجربة الرمز وبين تجربة الشاعر المعاصر ، فالمعروف تاريخياً عن الرمز (نوح) أن لحظة انطلاق السفينة كانت نقطة انتصار وفرح حملت بعضاً من بذور الحياة والإنسانية الجديدة ، وكأن الطوفان بمثابة الانتصار أو الوسيلة التي منحها الله للقناع كي ينتصر بها على الواقع المظلم من كفر وإشراك وعدم الإيمان . فالإبحار عند الرمز يفترض أن يكون مفعما بالفرح والسرور ، ولكن الإبحار في القصيدة عكس إحساس الحزن والهموم والانكسار ، لذلك فإننا نحس بحضور التجربة المعاصرة للشاعر ورؤيته الجديدة لعالمه وواقعه من دون أن يحدث هذا الإحساس شرخاً أو تشويهاً بالتناغم الناجح بين تجربة القناع ورؤية الشاعر المعاصرة ، بل شكلت هذه العبارة الشعرية أو الضربة الفنية في لوحة القصيدة بؤرة التدفق والتلاقي بين الماضي والحاضر والمؤثرة في ذات المتلقي، والتي ولّدت فيه الإحساس الأكثر لتجربة القصيدة عندما جمعت بين لحظة الماضي والحاضر، ودفعت مشاركته في تشخيص الفوارق الإنسانية بين ما اكتنزه الماضي من خلال رموزه، وبين حقيقة الواقع من خلال ما أضافه الشاعر من دلالات جديدة لرمز القصيدة ، هذه

الدلالات الجديدة تحفز القارئ للمشاركة والتعاطف، وفهم الواقع بشكل أعمق ويساعده في ذلك ما تحمل رموز القصيدة من تاريخ وتراث وعقائد وتقاليد وأحداث ... تفرض عليه المقارنة بين لحظة الماضي والحاضر ليعرف ويتحسس من خلال هذه المقارنة عمق الهوّة وحجم الأزمة والمصيبة من دون أن يتدخل الشاعر المعاصر بشكل مباشر في ذلك ، لذا نجح المقالح هنا في تهيئة الجو المناسب المؤثر في ذات المتلقي لاستقبال التجربة المعاصرة بشكل أعمق وتقبل أكثر .

وفي المقطع الثاني من القصيدة نسمع استبطاناً ذاتياً مثقلاً بالتأزم الوجداني :

حين رأيتكم رأيت السفح والقمم(3)
في قبضة الإعصار
أحزنني أن أشهد الأطفال
أن أشهد النساء
غارقة تضرع في ابتهال
تلعنكم
تبصق في وجوهكم يا أيها الرجال
يا أيها الأنذال

يأخذ الاستبطان الذاتي مساحته الأوسع في القصيدة ، والشعور واضح في هذا المقطع (الحزن ، العذاب ، الألم ، التأسف ..) وهي صورة تخالف واقع الرمز الديني ، لأن الطوفان كان المعجزة التي انتصر بها هذا النبي من قومه وظلمهم ، لذلك تغيرّت دلالات الطوفان هنا إلى معنى آخر ، أو لنقل انتقل من دلالته الخاصة بالرمز الديني إلى دلالته الأعم والأشمل في تجربة المقالح. فالطوفان أو الإعصار أصبح يمثل الظلم نفسه ، يمثل الجوع .. المرض .. الاستغلال .. الواقع المظلم على الشعب اليمني والعربي ، وكأن سفينة نوح في

هذا المقطع لم تحمل خيار الناس المؤمنين كما كانت في التأريخ ، بل حملت في القصيدة شرار القوم للنجاة ، بينما راح الشعب يموت بين دلالات الطوفان وصور الفناء من الغرق للأطفال والنساء ، ويغيب السفح والجبال في قبضة الإعصار .

هنا تنقلب مفاهيم الرمز وتجربته ودلالة حياته التأريخية ، يتغير كل شيء في قناع القصيدة وكأن الرمز في بدايتها هو غيره في هذا المقطع الشعري ، وهنا تبدأ تجربة الحاضر (الشاعر) بالظهور التي نلمح من خلالها صور البيئة والأحداث التي تؤكد فينا صورة الشاعر وبيئته اليمنية أكثر من حقيقة الرمز الديني (نوح) .

ولعل عاملاً آخر يؤكد لنا حضور الشاعر هنا عنه رمز التاريخ ، تلك اللغة التي اقتربت من لغة المقالح الثائر وابتعدت عن لغة النبي المرشد الناصح، فالمقاطع الآتية تؤكد هذه اللهجة وحدَّتها المباشرة للشاعر وغضبه، والتي ابتعدت عن لغة الحياة والإرشاد الهادئة المناسبة للرمز النبي واقتربت إلى ثورية الشاعر المعاصر المتألم .

تبصق في وجوهكم يا أيها الرجال

يا أيها الأنذال

في نهاية المقطع الثاني يبدأ صوت المقالح يسيطر على مساحة القصيدة، وتظهر غنائية بشكل أقوى ، وتبدأ عملية الاستبطان الذاتي واللغة المباشرة ، والبيئة اليمنية تفاصيلها وبخصوصيتها ولاسيما لفظ (القات) ، هذه المفردات هي التي تشكل صورة الحدث في تجربة القصيدة ، والصورة هنا هي ما يفعله الطوفان بدلالته الخاصة المعاكسة عند الشاعر ، وليس الطوفان المعروف في تاريخ الرمز الديني . إنه طوفان الجهل والتخلف والجوع والاستغلال والظلم... الواقع المظلم للشعب المقهور ... الطوفان الذي أغرق المساكين من الشعب المؤمن واكتسحهم دماراً وأبقى على حياة الطغاة الظالمين ...

أحزنني أن تختفي البيوت والأشجار(2)

أن تختفي الآثار

أن تغرق القباب

أن يغرق الشيوخ والشباب

أن تغمر المياه الزرع والمدائن

أن تغمر المآذن

أحزنني أن ألمح البطون فوق الماءْ

مبقورة شوهاء

برغم هذا الحضور الواضح للمقالح ممزقاً برقع التوحد بينه وبين رمزه الديني ، إلا أننا مازلنا بوصفنا متلقين للقصيدة نتحسس نكهة التاريخ والدين ، ومازالت ألوان الرمز وروحه حاضرة في تجربة القصيدة من خلال المقارنة الضمنية بين أوجه اللقاء والاختلاف في صور القصيدة بين تجربة الرمز وتجربة الشاعر المعاصر . لذلك برغم هذا الخروج من صومعة التوحد التي يقع بها الشعراء المعاصرون ، فإننا نقرّ بنجاح هذا التوظيف الفني للرمز في القصيدة الحديثة التي استطاعت أن تحتفظ في آن واحد بين الرمز والشاعر ، ويمكن أن نصل عن طريق الأساطير والرموز إلى صلة موروثة بين الجماعة الإنسانية ، ونشعر بتشابه التجربة الإنسانية والتقائها بين الماضي والحاضر .

ومن جماليّة الإبداع عند المقالح ، ذلك المزج الناجح والذي يبدو غريباً للحقائق التاريخية للرمز ، ولكنها الصورة والطعم الذي يشعرنا باجتماع التجربتين في آن واحد ، وتلاقي التضاد في آن واحد ، التاريخ والحاضر ، والذي نستشف منه مرارة الأسى التي أرادها المقالح أن نشاركه بها وتصل إلينا.

أحزنني .. عميت لم أعد أرى(2)

شيئا من الناس .. من القرى

تلاشت الألوان والأسماء

وأطبق الدّجى

وغام وجه الأرض والسماء

في هذا المشهد التراجيدي يفجّر المقالح دويّ التضاد بين شحنتين مختلفتين ، الموروث الديني المفرح للرمز وبين حزن وألم الطوفان عند الشاعر المعاصر ، وبين غضب السماء ومصيبة الأرض .

وغام وجه الأرض والسماء

في نقطة التلاشي ترك المقالح المتلقي فيها يستشف جماً من الدلالات والتقلبات في مفاهيم الرؤيا الجديدة ، ما يجعل منه عنصراً مشاركا في تجربة القصيدة .

ومثلما بدأ القناع في المقطع الأول ، تنتهي القصيدة في مقطعها الثالث بصوت أيوب المقالح ، أيوب وبيئة اليمن وشاعر اليمن ، لأن الشعر الأسطوري ((رؤيا تتخطى الوعي ، يدركها الشاعر بحدسه فتأتي صورة رمزية عينية مطلقة ، فالشعر ليس مجموعة مواد تتوفر للشاعر فينظمها ، وكلما حصل على مادة جديدة أضافها ، بل هو إشراق تفرض فيه الرموز ذاتها على الشاعر فتولد الصورة الرمز ولا تصنع))[10]، أي إن الأسطورة في الشعر ليست مجرد بناء قصصي ، بل هي حياة القصيدة .

قلت لكم والمد لم يزل بعيداً[2]

والبحر لم يزل بعيداً

أن تفتحوا عيونكم على الخطر

لكنكم لم تسمعوا ، تعالت الضحكات

في ردهات "القات"

أقعى الضمير في دياركم ومات

فكان هذا الهول والإحزان

فقد طغى الطوفان

وكان يا ما كان .

الهوامش

(1) ما الأدب ، سارتر ، ترجمة غنمي هلال ، مكتبة الانجلو المصرية ، 1961 م ، ص185.

(2) ديوان عبد العزيز المقالح ، دار العودة – بيروت ، 1986 م ، ص211 .

(3) ديوان عبد العزيز المقالح ، دار العودة – بيروت ، 1986 م ، ص33 .

(4) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط2 – 1405هـ – 1985م ، ص26–27 .

(5) ديوان عبد الوهاب البياتي ، دار العودة – بيروت ، 1972 م ، ص34 .

(6) The New Encyclopedia Britannica, 1985, 15th edition, Vol, VI, (mask)

(7) الشمس والعنقاء ، دراسة نقدية في المنهج والنظرية والتطبيق ، خلدون الشمعة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق – ط2 ، 1986 م ، ص87 .

(8) دير الملاك ، دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي ، د. محسن اطميش ، دار الشؤون الثقافية – بغداد – ط2 – 1986 م ، ص66 .

(9) مجلة فصول ، عدد 4 – س 1983 م ، أقنعة الشعر العربي المعاصر ، د. جابر عصفور ، ص123–124.

(10) الدراما ، اشلي ديوكس ، ترجمة محمد خيري ، مطبعة مخيمر – القاهرة ، ص56.

(11) أدبنا الحديث بين الرؤيا والتعبير ، ريتا عوض ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1 – 1979 م ، ص29 .

المصادر والمراجع :

(1) أدبنا الحديث بين الرؤيا والتعبير ، ريتا عوض ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ط1 – 1979 م .

(2) الدراما ، اشلي ديوكس ، ترجمة محمد خيري ، مطبعة مخيمر – القاهرة .

(3) دير الملاك ، دراسة نقدية للظواهر الفنية في الشعر العراقي ، د. محسن اطميش ، دار الشؤون الثقافية – بغداد – ط2 – 1986 م .

(4) ديوان عبد العزيز المقالح ، دار العودة – بيروت ، 1986 م .

(5) ديوان عبد الوهاب البياتي ، دار العودة – بيروت ، 1972 م .

(6) الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، دار الكتب العلمية – بيروت ، ط2 – 1405هـ – 1985م .

(7) الشمس والعنقاء ، دراسة نقدية في المنهج والنظرية والتطبيق ، خلدون الشمعة ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق – ط2 ، 1986 م .

(8) ما الأدب ، سارتر ، ترجمة غنمي هلال ، مكتبة الانجلو المصرية ، 1961 م .

(9) مجلة فصول ، عدد 4 – س 1983 م ، أقنعة الشعر العربي المعاصر ، د. جابر عصفور.

(10) The New Encyclopedia Britannica, 1985, 15th edition, Vol, VI, (mask)

Title

Changes of icon in Abdul Aziz Almaqaleh poetry

The poetry icon is most significant feature of innovation and achievement in the leader poet, to extend that twining of the icon and Novel ismost distinguished feature of the recent Arabic poetry. And there are intimate relation and replacing role in the presentation and suggestion to extend that each one is meant the other and replacing places in effect,we can say that this icon present the principle core that nourish the recent poetry built, and represent the most important artistic features and address in renovation and innovation, thereforethe poetry icon is one of most important aspect of artistic tools that the recent poet looking for it in poetry to suite and follow the feature and the updated ideas in thinking and society ,and it follow other natural sciences and here we can consider the poet of the big Yamani poetry Abdul AzizAlmaqaleh one of the best writers of recent poetry to the generation after the leaders, as an clear example that uses the icon as artistic mean during his life which was enrich in writing poetry.

In this research we notice that what has the poet achieved and how was his poetry was and ideal representation in using the icon in all its different, historical and religious and Novel criteria.

Dr. Rudahb Hafid Hameed